الدراسات الاستشرافية: النماذج والتقنيات

أ.د عامر مصباح

أستاذ التعليم العالي: كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 3

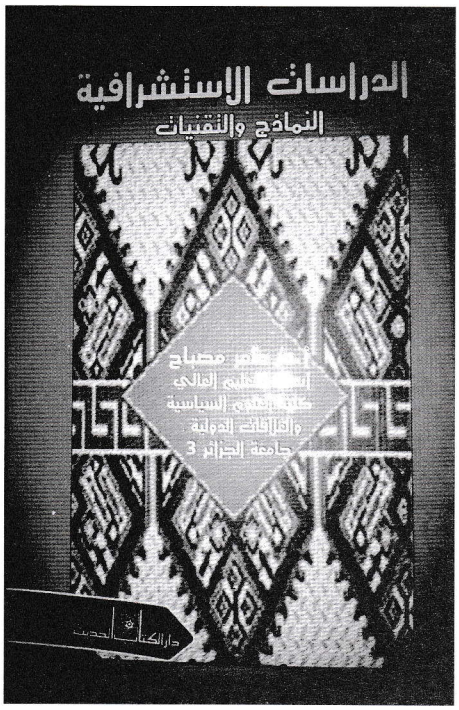

النتيجة المرغوبة من وراء تصميم النماذج النظرية في تحليل العلاقات الدولية هي التنبؤ بالمستقبل، كمؤشر ملموس على مصداقية وفعالية النظرية في استيعاب تعقيدات السياسة العالمية المعاصرة. وبالرغم من أن هذا الحقل من المعرفة لازال فتيا وغير متداول من قبل عموم الطلبة والباحثين في الجامعات، إلا أنه ينطوي على أهمية كبيرة في فهم وتحليل العلاقات الدولية والمساهمة في المراجعات النظرية المختلفة، باعتباره جزءً أو مكونا أساسيا من الحوارات النظرية الجارية في حقل العلاقات الدولية. في نفس الوقت، هناك صعوبة أساسية في تطور هذا الحقل المعرفي في منطقة العالم العربي المحددة في أن معظم التقنيات المقترحة للاستشراف المستقبلي، تتطلب فريق عمل من الخبراء الذين يتمتعون بمهارة كبيرة في الحسابات الرياضية

والقياسات الإحصائية؛ وطالما أن في منطقتنا مازال البحث العلمي لم يأخذ الاستقلالية الكافية والدور الأولي في معالجة مشاكل المجتمع ، فإن محاولات الاستشراف لحد الآن لازالت فردية ومحتشمة؛ بالطبع على عكس المجتمعات الصناعية التي أصبح تطوير البحث العلمي إحدى المكونات الرئيسية للمصلحة الوطنية في سياسات حكومات هذه الدول .

إذا تخطينا عقبة ندب واقع البحث العلمي في العالم العربي ، فإنه يمكن القول أن هذا الكتاب هو محاولة باتجاه التنبيه إلى أهمية هذا الفرع المعرفي ضمن حقل نظرية تحليل العلاقات الدولية؛ الذي هو جدير بالاهتمام من أجل تخطي تعقيدات الواقع العربي المتأزم ، والتنبؤ بالمستقبل حتى لا تتكرر مفاجأة الربيع العربي مرة أخرى في السياسة الإقليمية العربية . الحقيقة أن كل الدراسات العربية –مع الإقرار بقلتها–لم تستطع أن تؤشر على وقوع أحداث الربيع العربي بسبب ظهور استقطاب أكاديمي لفترة طويلة قائم على محورين: اتجاه يمثل الفكر التآمري القائمة تحليلاته على توثيق العلاقة بين الأزمات العربية والدور الخارجي ، واتجاه مستغرق في كيل التهم للحكومات العربية بالعمالة والاستبداد والفساد والفشل السياسي . ليس المقام هنا إثبات صحة أحد هذان الاتجاهان على حساب الآخر ، ولكن ما هو مهم التأكيد على أن دراسات السياسة العربية لحد الآن لم تستطع استيعاب التحولات الدولية منذ سقوط جدار برلين عام 1989 ، وأكثر تجلياتها المقاومة غير الناضجة للعولمة وكل ديناميكيتها وتدفقاتها ، إلى أن وجدنا أنفسنا يفرض علينا التغيير إما بواسطة الغزو العسكري المباشر أو بواسطة الاضطرابات الاجتماعية والصدام مع الذات . ومن ثم ، تصبح قراءة التاريخ والواقع بطريقة صحيحة ومن وراء ذلك التنبؤ بالمستقبل ، هو الطريق نحو فهم وتحليل الواقع العربي المعقد ، وتفادي الصدام المأساوي بين الحكومات وشعوبها في المستقبل .

من الناحية التاريخية ، صحيح أن اهتمام الإنسان بالمستقبل قديم يرجع إلى الحضارة الفرعونية والإغريقية من حيث اعتماد الملوك على السحرة والمنجمين لمعرفة المستقبل ، وكانت أكثر الفترات التي استخدم فيها السحر على نطاق واسع من أجل التنبؤ هي الفترة الفرعونية الطويلة . هذا كجهد بشري خالص ، لكن اشتهر من الأنبياء بمعرفة المستقبل سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام الذي كان يخبر اليهود بما لا يعلمون من شؤون المستقبل كجزء من الرسالة السماوية التي جاء بها؛ وقد عبّر القرآن الكريم بوضوح عن خاصية التنبؤ للمسيح عليه السلام عندما قال: "وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم ."[1]

(1) سورة آل عمران ، الآية: 49 – 50

بناءً على هذه الآية –والكثير منها في القرآن الكريم–، يمكن استنتاج فكرة جوهرية أن معرفة المستقبل وظيفة مهمة وحاجة ضرورية لإشباع دافع الإنسان إلى الأمن النفسي والاستعداد للأسوأ من أجل أيضا الأمن. لذلك بعث الله الرسل منذ بدء الخليقة، الأنبياء والرسل ليخبروهم بما هو آتي من أيام الدنيا، شروط استمرار الوجود الآمن لحياتهم في الدنيا، وما هو آتي في مرحلة ما بعد الموت التي تعتبر هي الأخرى ضمن المستقبل غير المشهود.

مرة أخرى، يعتقد المتخصصون في مجال الدراسات الاستشرافية أن الاهتمام بمعرفة ملامح المستقبل قد بدأ مبكرا في تاريخ العلاقات الإنسانية في العهد الإغريقي والحضارات القديمة في مصر والعراق، من خلال استعانة الملوك والقادة السياسيين بالكهان والشعوذة لاستبصار المستقبل؛ خاصة فيما يتعلق بمصير الملك ونتائج الحروب وسلوك الأعداء، كانعكاس لحالة القلق التي تساور الإنسان باستمرار حول المصير المستقبلي. انتقل هذا الاهتمام بالمستقبل إلى الفلاسفة والعلماء الذين حاولوا بناء نماذج معينة للتنبؤ بالمستقبل، وتحديد ملامح ومؤشرات المصير القادم، ومن بينهم الفيلسوف اليوناني أفلاطون من خلال أطروحة "الجمهورية الفاضلة" التي ترسم خطوات مآلات السلوك في المستقبل بطريقة مثالية. كذلك حاول القديس سان أوغسطين التنبؤ بالمستقبل عبر بناء نموذج مثالي يتضمن فكرة وجود مدينتان: أحدهما مدينة الله المبنية على أساس من الفضيلة والمحبة، والأخرى هي مدينة الإنسان القائمة على الغرور والشر، وافترض أن النصر سيكون حليف المدينة الأولى، وعلى أن الناس يسعوا لتحقيقها. أضاف الأستاذ وليد عبد الحي إلى هذه القائمة أسماء مفكرين آخرين من أمثال فرانسيس بيكون وتوماس مور وكارل ماركس، لكنه لم يتحدث عن المفكرين المسلمين من أمثال ابن خلدون الذي طرح نموذجا أكثر وضوحا وواقعية في استبصار مستقبل الأنظمة والدول. وهو النموذج الذي لا يزال يحاكى بطريقة ما من قبل المفكرين الحداثيين من أمثال هربرت سبنسر، [2] والمعاصرين في قراءة مستقبل العلاقات الدولية من أمثال بول كنيدي في عمله المشهور حول صعود وأفول الدول.

بعد أن توقفت الرسل برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، تولى الإنسان بنفسه استشراف المستقبل وخرق حجب الحاضر لمعرفة الآتي من الأيام بواسطة إعمال العقل وبناء نماذج التنبؤ، التي تعتبر محاولة ابن خلدون رائدة في التراث الإسلامي حول تتبع تطور العمران البشري وتحديد مؤشرات محددة لقيام الدول وانهيارها.

(2) محمد علي محمد، المفكرون الاجتماعيون: قراءة معاصرة لأعمال خمسة من أعلام علم الاجتماع الغربي. (بيروت: دار النهضة العربية، 1983)، ص–ص. 45–30.

بناءً على الاهتمامات الأولية الراسخة في النفس البشرية حول معرفة المستقبل والمتجذرة في التراث الثقافي والفلسفي الإنساني، وكذلك الجهود الأكاديمية المتعلقة بصياغة عدد من نماذج الاستشراف المستقبلي وتطوير تقنيات التنبؤ، تم تقسيم مخطط الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يتضمن الأول تحديد مجموعة من المفاهيم والمنظرين الأوائل للدراسات الاستشرافية؛ والقسم الثاني متعلق بنماذج الاستشراف؛ ويتضمن القسم الأخير تقنيات الاستشراف.